حركة اوربا السياسية

في القرنين الاخيرين

وهي تشرح مبدأ التوازن الاوربي وتبيّن فعلهُ في السياسة

نظرة عامة

في عام ١٧١٥ مات الملك العظيم لويس الرابع عشر. فكان موتهُ بدء القرن الثامن عشر وهو القرن الذي بزغت فيهِ اشعّة العلم والحرية فاستنارت بها الشعوب الاوربية وفطنوا الى وجوب التضامن والتكافل والى وضع ناموس يضمن سلامة المجموع الاوربي ويحفظ توازنهُ

وغريبٌ ان ينتشر فكرٌ كهذا الفكر في زمن كان النزاع فيهِ على السيادة في اوربا بالغًا اقصاهُ على انّ طبيعة الحال اقتضت ذلك ولعلّ انكلترا كانت اسبق من غيرها الى العمل بهذه النظرية فقد قال معتمدها سنة ١٧١٧ للدوق دورليان ان رغائب بريطانيا العظمى ان تقف فرنسا عند حدّها وان تكون اقلّ مضاهيةً لها في القوّة. ولا ريب ان سياسة الانكليز كانوا في طليعة المحامين عن حوزة الدولة العلية حفظًا للتوازن الاوربي من الاختلال. فعلوا ذلك لمصالحهم الذاتية وكذلك تفعل كلّ دولةٍ من دول العمور فان الخير المجرّد لا يوجد في معترك وقفت فيهِ الدول وقفة الكواسر وهنّ يتمثّلن بقول القائل

مَصيرُ كل شديدِ البأسِ ذي عُدَدٍ الى البقا ومصيرُ الاضعفِ العدمُ

ولم يقف البشر عند حدّ المعرفة تبادئ الحرية بل تجاوزوهُ الى الحياة والعمل فنشأت الثورات السياسية واهمها الثورة الفرنسوية وكانت التجارة قد اتّسعت باتساع المستعمرات والمزاحمة على موارد الرزق النائية فنهضت الطبقة الوسطى نهضةً ارتعدت لها فرائص الاشراف وكان من ذلك ان اشتدّ ارتباط الامم بعضها ببعض ولاسيما بعد ان قام فيهم فلاسفة الاجتماع والحرية الذين قادوا اوربا الى ربوع العلوم الطبيعية

فاوربا الآن تحسب التضامن العام مبدأ مقدّسًا وسواء عندها اخلّ التوازن لاسبابٍ داخليةٍ في دولة من الدول او لاسباب خارجية فان على جاراتها التداخل في شؤونها واكبر عار سياسيّ ان تتقاعد دولة عن مناصرة المجموع في ما يؤول الى منع اختلالهِ وحفظ توازنهِ

حروب نابوليون

اعتبر ذلك في تألّب الدول على بطل فرنسا المغوار فانهُ لما عجز عن غزو انكلترا كرّ راجعًا

الى قلب القارّة وفي نفسهِ اذلال النمسا فكان الواجب على بروسيا ان تعضد النمسا حفظاً للتوازن لكنها جبنت امام نابوليون فتمكّن من النمسا ثم عاد في العام التالي فقهر بروسيا ودخلها ظافراً فخسبت اوربا عمل بروسيا جبناً عظيماً وعاراً اكبر من عار هزيمتها

وعادت النمسا الى مناجزة نابوليون فناصرتها اوربا واكثرها مجاهرة بذلك بريطانيا العظمى وعلم نابوليون ذلك فلم يترك وسيلةً لاذلال الانكليز لكنهُ فشل لعلمهِ ان اوربا عليهِ وانما ناصرت انكلترا النمسا وامدّتها بالمال لانها كانت ترى في خضد شوكتهِ حفظ التوازن وسلامة المجموع

***

ولما غزا نابوليون المانيا سنة ١٨٠٥ تخوّفت روسيا شرّ العاقبة ولاسيما بعدما اظهرت بروسيا ما اظهرتهُ من الجبن والرعدة فسيّر القيصر جيشاً الى نصرتها ومع انهُ باء بالفشل وانهزم جيشهُ في اوسترليتز وفريدلاند فان اوربا اجلّت عملهُ وحسبتهُ من اشرف الاعمال

كذلك لما غزا نابوليون بلاد الاسبان فقد رأت انكلترا ان تقف لهُ بالمرصاد وكانت اوربا منهوكة القوى بعد ان جاس فيها بقدميهِ على انها عرفت ان حرّيتها متوقفة على اتفاقها مع انكلترا فارسلت هذه جنودها الى اسبانيا تحت امرة ولنغتون وناصبت نابوليون هناك الحرب العوان حتى تمّ لها ان تكسر جيوشهُ وتزحف بساعدة اوربا الى وترلو فتضربهُ الضربة القاضية

فلما انتصر ولنغتون علا لهُ هتاف النصر في الممالك المتمدنة ولقبهُ الساسة بمحرر اوربا وما ذلك الاّ لان انكلترا اجابت داعي المصلحة العامة فلم يقعدها الجبن عن القيام بواجبها نحو الاتحاد الاوربي

***

وكانما اوربا كانت ايام نابوليون في حلم مخيف ايقظها منهُ صليلُ السيوف ودويُّ المدافع في وترلو فتنادت وعزمت ان تحيا حياةً جديدة تكفل سلامة مجموعها فتكلل مؤتمر فينا والاتحاد المقدس لاجل هذه الغاية وصار العالم المتمدن يأمل ان ترجع الاحوال الى نظامها لكن المؤتمر لم يفلح في اعمالهِ فحدث بعض الرجعة في افكار الناس على ان هذه الرجعة لم تكن تقهقراً فان مبادئ الحرّية كانت قد تأصلت في النفوس فتشرّبت معنى الوطنية وصارت تميل الى ما فيهِ صلاح المجموع · دفعهم الى ذلك ازدياد مصالحهم وما يتوخّونهُ من الخير في الاتحاد والتضامن · لذلك اتحدت الممالك الالمانية واصبحت ايطاليا مملكةً واحدة ولاجل

هذه الغاية اتحدت انكلترا وروسيا والنمسا ورومانيا على نابوليون الذي كان في نظرهن مقلق اوربا ومكدّر صفوها

فترى ان مبدأ التوازن كان ولم يزل الدافع الاعظم لكل الحركات السياسية . فقد أوعزت جنوى في بيدمونت لتعزيز سردينيا . وضمت القنلك الى هولاندا لايقاف التيار الفرنسوي في الشمال . وسُلخت نروج عن الدغارك وأُعطيت لاسوج بدل خسارتها فنلاندا وأُضيفت ولايات الرين الالمانية الى بروسيا وبافاريا لكي يكون لفرنسا عدو شديد في الجانب الشرقي . ولما وضعت روسيا يدها على فنلاندا ودوقية وُرسو قلقت اوربا كثيراً ولم يهدأ روعها حتى فعلت ما ضمن لها سلامة التوازن

المسألة الشرقية

ولا يظهر مبدأ التوازن في شيء ظهوره في المسألة الشرقية . قال احد الساسة « ان هذه المسألة ستبقى شوكةً في جنب اوربا الى الابد » . وقال سياسيٌّ روسي « قبّح الله المسألة الشرقية . فانها كداء النقرس اذا لم يعبكَ في قدمك اصابك في رجلك وحيثُ لم لا يصيبهُ في احشائه »

فمن مصلحة انكلترا والنمسا معاضدة الدولة العلية وحفظ كيانها اما النمسا فلانها تكرهُ ان ترى روسيا بالقرب منها واما انكلترا فلأنها تخاف على تجارتها في الشرق وعلى سيادتها في البحر المتوسط . ولا شكّ ان تركيا اخطأت خطأً سياسياً فظيعاً في معاملتها لمسيحيها فانها كانت تعلم حقّ العلم علاقتهم بالدول ولاسيما روسيا وهي تدّعي حماية الايمان في الشرق فكان الاجدر بها ان تتقرّب منهم وتبث فيهم روح المحبة والثقة . لكنها اتّبعت سياستها القديمة فعرّضت نفسها لكثير من المشاكل ولم تدرك خطأها الاَّ في هذه الآونة الاخيرة وعسى ان يتمّ لها ما تتوخاه من جمع كلمة عناصرها وتوحيد غاياتهم وذلك بما تُريهم من عطفها عليهم و بذلها الجهد في إسعادهم وترقيتهم

***

كانت الدولة في بدء القرن التاسع عشر مختلّة النظام ضعيفة الجانب فبدأت القلاقل في ولاياتها ولم تكن اليونان راضيةً بما حصلت عليهِ من الحكم الاداري بل كانت تطمح الى انشاء مملكةٍ يونانية ترجع مجد اليونان القدماء حتى اذا اشتدّ ساعد جمعيتها السرية هيتاريا اوقدت نار الحرب في البلاد فانتشرت بسرعة عظيمة وزاد انتشارها قبول الامير هبسلانتي قيادة الجيوش ضدّ الدولة العلية

فاذا فعلت اوربا حيال هذه المشكلة الكبرى ؟

كان القلق عظيماً من جهة نيات روسيا وهي صاحبة الكلمة الاولى في الشرق الادنى على ان ذلك القلق لم يلبث حتى زال اذ تمكن مترنيخ وكاريج من حمل القيصر على لزوم الحياد حتى صرّح ان حكومته لا تساعد الثوار . اما انها فانها عزمت ان تتبع سياسة عميدها مترنيخ الذي قال ان ثورة اليونان خارجة عن نطاق التحالف الاوربي وقد اراد بذلك ان يحصر الحرب في مكانها فلا تمتدّ الستها الى اوربا

لكنّ اليونان لم يبالوا بتصريح روسيا ولا بقول مترنيخ بل اشعلوا نار الحرب وارسلوا القرصان في البحر وجاء محمد علي جد العائلة الخديوية باسطولهِ لمعونة الدولة فغزا المورة وكاد يقضي على اليونان لولا ان الرأي العام الاوربي ناصرهم فاقامت الجرائد المسيحية اوربا واقعدتها وتحوّلت حركة اليونان الى شبه حرب صليبية فلم تَرَ الدول عند ذلك مندوحة عن التداخل في امر تلك الحرب

واغتنمت انكلترا تلك الفرصة لمعارضة سياسة روسيا فصرّحت بان حركة اليونان حربٌ نظامية لا ثورية وعرفت روسيا انها تنوي مزاحمتها على حماية المسيحيين في تركيا فاعدّت لذلك عدتها

ورجع مترنيخ عن رأيهِ وهو عدم التداخل في الحرب فتلقت الاندية السياسية وعلت جلبة الساسة وقد تقاطعت مصالحهم في كيفية ايقافها

فاشار القيصر ان تجعل اليونان امارات كامارات الطونة تحت رعاية الباب العالي ودول اوربا فلم يرضَ مترنيخ اذ عرف ان ذلك يؤول الى زيادة نفوذ روسيا فيها وقال الاولى بنا ان نثبّت الامر الآن فإما انشاء مملكة يونانية او ارجاع اليونان الى الدولة العلية . وطال الجدال في هذا الامر وكثر الاخذ والعطاء على ان كفة الاستقلال رجحت اخيراً ولا سيما بعد معركة ناڤارينو وانتصار الجنرال دبيتش فاصبحت بلاد اليونان مملكة مستقلة

وانما رضيت اكثر الدول باستقلال اليونان لانها رأت ذلك اقل خطراً على توازنهن من جعلها امارات تحت سيطرة روسيا

محمد علي باشا الكبير

ولم تنتهِ المسألة الشرقية بانتهاء الحرب بل اتخذت شكلاً آخر بقيام محمد علي . وكان السلطان محمود ذا ميل شديد الى الاصلاح فشرع في تنظيم السلطنة وادخال بذور التمدن الاوربي فيها . قال اني لا اعرف مسلماً او مسيحياً او يهودياً الاّ في محل عبادتهِ فمتى خرج

منهُ كان هو وغيرهُ سواء امام الشرع والقانون . فلم يَرُق اصلاحهُ للعامة بل قاموا عليهِ وصاروا يتوقعون ان يعاقبهُ الله على ضلالهِ ووافق ذلك خروج محمد علي وزحفهُ على الشام فحسبوا ذلك دليل غضب الله على السلطان

فسيّر محمد علي ابنهُ ابراهيم باشا بثلاثين الفاً الى سورية وفي نيتهِ الزحف على الاستانة ففتح عكاء ودمشق وهزم الجنود الشاهانية في حمص وحماة ثم قهر رشيد باشا في قونية وبات على ابواب العاصمة

وفي اثناء ذلك كانت انكلترا وفرنسا منهمكتين في اضطراباتهما الداخلية ولذلك اغمضتا العين عن فلاقل الدولة فتقدمت روسيا الى الامام وعرضت مساعدتها على الباب العالي على ان السلطان محموداً كان يعلم غرضها وانهُ لا يروق لها ان ترى في الاستانة حكومة نشيطة فابى قبول مساعدتها اولاً لكنهُ اضطر بعد معركة قونية الى الالتجاء اليها بالرغم من كرههِ لها

فارسلت روسيا اسطولها الى القرن الذهبي وسيّرت ١٥ الفاً الى بيوكدره وثرابيا ولما رأت انكلترا وفرنسا ذلك هالها الامر واوجستا شراً من تداخل روسيا فاتفقتا على وضع حدّ لهذه الفلاقل وعليهِ ارسلتا اسطولها الى الدردنيل وحملتا الباب العالي على توقيع عهدة كوتاهية التي عُهد بها الى محمد علي بولاية الشام واطنه علاوة على مصر . فامتاء الباب العالي منها وتمهل على ما كتبها فعقد مع روسيا عهدة انكيار سكلسي وفيها ان لروسيا عند الحاجة الحق بالتداخل العسكري في شؤون الدولة وان الدردنيل موصدٌ في وجوه الدول جمعاء

فوقفت عند ذلك روسيا وانكلترا وجهاً لوجهٍ وعلمت كلٌ منهما انَّ الواحدة تترصد الاخرى للايقاع بها — روسيا لانها تحسب المسألة الشرقية تخصها دون سواها وانكلترا لان مصالحها في الشرق كبيرة فلا تطيق ان ترى روسيا صاحبة السيادة هناك

على انَّ وزارة « بيل » كانت تميل الى مسالمة روسيا ومودتها لكنَّ عهدة سكلسي كانت تحول دون ذلك فلم تستطع الدولتان نزع اسباب العداء والبغضاء . ثم سقطت هذه الوزارة وشكّلت وزارة بالمرستون الحرة فزاد التغور بين انكلترا وروسيا ووقفتا موقف التأهب والحذر

وعقب ذلك عهدة برلين ثم عهدة شنغراتز وفي الاخيرة قرار الدول العظمى على مساعدة تركيا وحمايتها . وفي سنة ١٨٣٨ وقعت انكلترا مع الباب العالي عهدةً تجارية تضرّ بمصالح محمد علي كثيراً فاحتلّت عدن في السنة التالية لحماية التجارة في البحر والسويس وساء ذلك

فرنسا فتركت انكلترا ونوت منازعتها حتى اذا توفي السلطان محمود وخلفهُ عبد المجيد جاهرت بموالاة محمد علي وفي نيتها ان تستخدمهُ لمصادرة التجارة الانكليزية في الشرق على انها لم تفلح فان سير السياسة سنة ١٨٤٠ اقتضى ان تتسامى روسيا وانكلترا ما بينهما وان تتفقا مع النمسا وبروسيا على اخراج بطل مصر من سوريا ففي ٣ تشرين الاول (اكتوبر) من تلك السنة اخلى ابرهيم باشا بيروت وفي ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) اخلى عكاء وقنع محمد علي بان تكون ولاية مصر وراثية في بيتهِ

حرب القرم

لم تتلكأ دولةٌ في الاعتراف بالامبراطور نابوليون الثالث تلكؤ روسيا ولولا خوف قيصرها نقولا الاول من ان اصرارهُ في ذلك قد يؤول الى اتفاق انكليزي فرنسوي تُخشى عاقبتهُ لما اعترف بهِ بتاتاً وعرف ذلك امبراطور فرنسا فحقد على القيصر وصار يترقب الفرص للانتقام منهُ

ففي سنة ١٨٥٠ اكفهرّ جوّ السياسة في اوربا ورأى نابوليون الفرصة السانحة فاغتنمها . وذلك انهُ في سنة ١٧٤٠ كانت فرنسا قد اتفقت مع الباب العالي على حماية الكنيسة اللاتينية في تركيا ثم حدثت في فرنسا بعض القلاقل على اثر انتشار آراء ڤولتير وكتاباتهِ فتحولت انظارها عن الدولة العلية الى امورها الداخلية واغتنمت ذلك روسيا فاوعزت الى كهنتها في بيت المقدس ان يأخذوا بعض املاك اللاتين وامتيازاتهم فلما قام نابوليون الثالث وكان كما قدمنا ينوي الانتقام من روسيا ارسل الى الباب العالي يطلب منهُ ارجاع ما اخذهُ الارثوذكس من اللاتين فوقع الباب العالي بين شرّين روسيا من جانب وفرنسا من جانب وكلتاهما لا تتنازل شعرةً عن مطاليبها . اما روسيا فقد كانت ترغب في قتال الدولة وكثيراً ما صرّحت بذلك لسفير انكلترا وانها تنوي وضع يدها على الولايات البلقانية ومقابل ذلك تساعد انكلترا في وضع يدها على قبرص ومصر وكريت ولم تكن تلك في انجاز النمسا اليها وبالتالي بروسيا لاسيما وانها كانت قد اسدت الى النمسا جميلاً كبيراً سنة ١٨٤٨

على ان روسيا اخطأت في تصريحها لانكلترا بنياتها وكذلك في اتكالها على النمسا وبروسيا . وطال امد المخابرات مع الباب العالي حتى عيل صبر روسيا وشهرت الحرب على الدولة العلية وهي على اوهامها المذكورة فغزت امارات الطونة ثم ارسلت اسطولها الى سنوب حيث دمّر المراكب العثمانية

ورأت ذلك انكلترا وفرنسا فارسلتا اسطوليهما الى الدردنيل لتوعّدا ان روسيا وتنذرانها

بسوء المصير فريسة ذلك العدو المشترك فعقدت انكلترا وفرنسا مع الباب العالي وفي سنة ١٨٥٤ شهرت الحرب على روسيا الموسكوبية

وخشيت النمسا ان تستتبع روسيا امارات الطونة وتوصد ذلك النهر في وجه تجارتها فبادرت إلى حشود على الحدود الصربية ووقفت تترقب سير الحوادث . اما بروسيا فعملاً باشارة بسمارك (وكان قد بدأ بالظهور) غيرت سياستها السابقة وانفصلت عن النمسا

وفي حزيران (يونيو) من تلك السنة كانت النمسا قد جلت عن امارات الطونة وكانت انكلترا وفرنسا قد أتمتا الفصل مع روسيا فاتفقتا على المطالب الآتية وعضدتهما في ذلك النمسا وبروسيا على المطالب الخمسة الاولى

(١) الغاء حماية روسيا للصرب ولامارات الطونة
(٢) فتح نهر الطونة لجميع الدول
(٣) تحرير معاهدة ١٨٤١ التي تقضي بإبعاد الدردنيل في وجه الدول
(٤) ان يحمي السلطان رعاياه من الكاثوليك والسريانيين في تركيا

فترددت روسيا في اجابة الدول وعليه اعلنت النمسا انحيازها لاعداء روسيا وابرمت معهن عهدة دفاعية . ودارت الحرب الطاحنة حول سفستبول واشتدت الدول المتحدة على روسيا حتى وهنت قواها فلما توفي نقولا الاول رأى خلفه اسكندر الثاني ان يقبل دعوة الدول الى عقد مؤتمر في فينا . على ان ذلك المؤتمر لم يفلح لان النمسا لامر انسحبت منه واعلنت حيادها فتقدمت عليها الدول ورأى ملك سردينيا الفرصة السانحة فاغتنمها وملأ محل النمسا في الاتحاد الدولي ثم ارسل ١٥ الف مساعدة المتحدين في الحرب . فعل ذلك لانه كان ينوي توحيد ايطاليا وجعلها مملكة واحدة يتولاها آل بيته وقد دلته فطنته انه لا بد من حرب بين ايطاليا والنمسا في المستقبل القريب فرأى لذلك ان يميل الدول اليه ويتخذ له منهن صديقات ينصرنه عند الحاجة

***

وفي سنة ١٨٥٥ فتحت الجنود الفرنسوية قلعة ملاكوف فعقب سقوطها سقوط سفستبول ثم اجتمع نواب الدول (ما عدا النمسا) في باريس وابرموا عهدتها المشهورة

عود الى المسألة الشرقية

ظن اكثر الساسة انه بانتهاء حرب القرم تنتهي المسألة الشرقية على انهم اخطأوا في ظنهم فقد انتهت تلك الحرب الطاحنة وأبرمت عهدة باريس ودخلت تركيا في عدد الدول

العظمى لكن المسألة الشرقية لم تمت بل عادت الى الظهور كما يتبين لك مما يأتي

لم تقم تركيا بوعودها للدول وكانت روسيا قد رأت في ابعاد البحر الاسود اخلاقاً بحقوقها الطبيعية فلم يمرّ خمس عشرة سنة على عهدة باريس حتى نقضتها . فتجددت مشاكل الدولة وعقب ذلك اعلان الدستور عام ١٨٧٨ ثم الحرب الروسية وعهدتا سان ستفانو وبرلين

وكان عبد الحميد الثاني قد منح النمسا بايعاز من امبراطور المانيا امتيازاً بمد خطٍ حديدي طوله سبعون كيلومتراً تكملة للخط الذي يصل النمسا ببحر آجيا وهذا الخط الجديد يخترق لواء نوفي بازار فيصل سلانيك رأساً بغيضاً وبالتالي ببرلين . فاعترضت السرب على ذلك وفي يدها امتياز باحتكار الخطوط البحرية هناك وهاجت روسيا لحماية النمسا اياها وذلك ان هاتين الدولتين كانتا قد اتفقتا الاّ تضع احداهن يداً على شيء في البلقان الأرضى الثانية فللنظر في هذه المشاكل ولا سيما فيما يتعلق بقلاقل مكدونيا عقدت اوربا مؤتمراً دولياً لعلها تتوصل الى حلها بطريقة مرضية وكانت المانيا تفكر في خطة تتناول بها بعض الامتيازات الخطيرة في تركيا منها خط بغداد وري ما بين النهرين وما اشبه مما يعارض نفوذ انكلترا وفرنسا فرأت ان تتقرب من الدولة العلية ولذلك انسحبت من المؤتمر الدولي فلم ينجح المؤتمر ولكن سلوك المانيا غيّر مراكز الدول السياسية فاصبحت روسيا وانكلترا وفرنسا في جانب والمانيا وحليفاتها في جانب آخر . فالمسألة الشرقية لا تزال هي هي والدول الاوربية لا يفتأن ينظرن بعضهن الى بعض نظرة الريبة والحذر . ولقد اكثرت الصحف من الخوض في مسألة الامتيازات الدولية وتضارب مصالح انكلترا والمانيا في بلاد الدولة العلية فلا حاجة الى ذكر اسبابها ولا الى ذكر اعلان الدستور للمرة الثانية في تركيا وما عقب ذلك من خلع السلطان عبد الحميد وتغيير سياستنا الخارجية وكذلك لا حاجة الى ذكر المسائل المزاكشية والايرانية فكلها حديثة العهد . على انهُ لا بد لنا من القول ان كل الحركات السياسية في اوربا سائرة الى نقطة واحدة هي حفظ التوازن فكما تغيرت سياسة الدول في حرب القرم وحرب روسيا واليابان وغيرها من الحروب والمشاكل كذلك هي تتغير الآن وستبقى كذلك ما دام للاوربيين مصالح في انحاء المعمور وما دام الاختلال في التوازن يُفضي الى حرب عامة تطحن اوربا طحناً

انيس الخوري المقدسي م . ع
وابرهيم خيرالله م . ع